حول كتاب «مكسيم رودنسون»:

«إسرائيل والرفض العربي»

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

يحاول «ماكسيم رودنسون»، عالم الاجتماع والمؤرخ الفرنسي، في هذا الكتاب الاخير بين كتبه، أن يدرس المسألة الفلسطينية والنزاع العربي الاسرائيلي دراسة يريدها علمية، مستندة الى منهج البحث الاجتماعي والتاريخي. وهو بذلك يقوم بمهمة صعبة وجريئة: انها تصطدم بالصعوبات الثاوية وراء أي محاولة لدراسة التاريخ من زاوية علم الاجتماع. وهي ترتطم بالحدود التي تمليها مثل هذه الدراسة على من آثر أن يصطنع فيها منهجا ذا اتجاه ماركسي، فيه الاتجاهات الاجتماعية والاجتماعية التاريخية التي وضع أسسها ماركس، وفيه بالاضافة الى ذلك رغبة في تفسير الماركسية تفسيرا جديدا ونزعة الى التحرر من أشكالها الرسمية المألوفة. وهي فوق هذا وذاك تركب هذا المركب العلمي الخطير، في موضوع شائك، يحمل طابعا عمليا سياسيا، كما يحمل سمة راهنة وحادة، ومن الصعب بالتالي فصل الحقيقة فيه عن الموقف السياسي. هذا اذا لم نشأ أن نذكر تلك الصعوبة النفسية الداخلية العميقة التي لا بد أن يواجهها كاتب مثل هذا البحث من خلال الضغوط النفسية والاجتماعية التي يمكن أن يتعرض لها بوصفه يهوديا، مهما يكن الجهد الذي يبذله في سبيل الحقيقة المجردة، ومهما تكن صلته باليهودية حرة من قيود الدين أو التعصب.

من خلال هذا كله تبرز نقاط القوة والضعف معا في مثل هذا الكتاب: انه محاولة جادة وصادقة وجريئة من أجل دراسة المشكلة الفلسطينية دراسة اجتماعية تاريخية علمية، جرب فيها صاحبها أن يكون مخلصا لمنهجه العلمي ما وسعه ذلك، وجرب أن يقاوم ويقاوم في سبيل هذا الاخلاص للبحث العلمي مشوهات كثيرة في داخله وخارجه.

وهي من هذه الزاوية أول محاولة ظهرت في هذا الميدان، ولا بد أن يتقبلها المفكرون والباحثون باستبشار وأمل.

غير ان هذه المحاولة لا بد أن تكون ـ بحكم طبيعتها والظروف التي تقوم فيها ـ معروضة لكل ما يمكن أن يتعرض له البحث الاجتماعي والتاريخي العلمي من مزالق ومخاطر، لا سيما عندما يتصدى لمشكلة لم تصبح بعد ملكا للتاريخ، وما تزال ملكا للحاضر بكل حرارته وقسوته ومرارته. وصاحب المحاولة ـ اخلاصا منه للحقيقة ـ لا يزعم لنفسه العصمة في ذلك، ولا يدعي انه يستطيع في مثل هذا الميدان من البحث أن يجترح ما لم يجترحه سواه، وأن ينجو من المخاطر والاخطاء التي لا بد أن يواجهها أي بحث علمي في ميدان الظواهر الانسانية عامة وفي ميدان الظواهر الاجتماعية والتاريخية خاصة. وحسبه وحسب غيره من الباحثين أن يبذل ما يستطيع للحصول على الوثائق والمعلومات التي تبدو له صحيحة وأن يسلط عليها منهج البحث العلمي وأن يتخير منها ما يبدو له معبرا عن المظاهر الاساسية للموضوع المدروس، وأن يعرضها متجردا ما استطاع من ضغط الافكار السائدة والآراء الشائعة والعواطف المفسدة. وهذا ما فعله وجربه بعمق وصدق.

وظننا ـ ضمن حدود ما نعرف أيضا وما نقوى عليه من تجرد ـ انه وفق في ذلك الى حد كبير. لقد جاءت الحقائق التي أثبتها صحيحة دقيقة في معظمها، وجاء تفسيره للاحداث وتحليله لمجرى الامور قادرا على الكشف عن محركاتها وبواعثها الحقيقية في أكثر المواضع، وأراد في الجملة أن يلعب دور القاضي الحكم بين طرفين متنازعين يصعب الحكم بينهما.

سوى ان جهوده الصادقة هذه أفسد بعض جوانبها في نظرنا عدد من العوامل:

أولها **انه أراد بالذات أن يلعب دور الحكم كما قلنا**. والحكم يحرص بطبيعة مهمته أن يصل الى التوفيق بين المتنازعين أكثر من حرصه على أن يحكم لاحدهما من دون الآخر. ان هدفه أن يقبّل المتخاصمان أحدهما الآخر، ولو على حساب أحدهما، ما دام يعتقد ان الصراع في غير مصلحة كليهما، وما دام يصدر عن منازع انسانية في نظره وعن جنوح الى السلم كثيرا ما يبدو له وكأنه الشيء الاخلاقي والانساني الاول.

ومن هنا ـ وهذا ثاني العوامل المفسدة لبعض نظرات الكاتب ـ ينطلق الباحث من أمنية لا من حقيقة علمية اجتماعية تاريخية مجردة، **هي الاعتقاد بأن مثل هذا التوفيق بين المتنازعين شيء ممكن**. وبدون هذا الاعتقاد ما كان له أن يكتب ما كتب أو أن يبذل ما يريد أن يبذل من جهد يراه نافعا. وهو بهذا يجاوز دون شك حدوده كباحث وعالم ويتخذ موقف المفكر الحريص على السلام

الراغب في التسوية السلمية ، الناظر اليها على انها تعلو على سواها في جميع الاحوال .

وثالث هذه العوامل الخلفية الموجهة لنظرات المؤلف المفسدة لها أحيانا والصادرة ايضا عن هذا الباعث الاساسي المحرك لتفكيره ـ باعث التوفيق والاصلاح ـ **اعتقاده أو رغبته في الاعتقاد ان اسرائيل يمكن أن تكون حريصة على التعايش الحقيقي مع البلاد العربية** ويمكن ان تقبل في سبيل ذلك تنازلات تصل الى حد انكار نزعاتها التوسعية بل انكار كيانها الذي قام بعد عام ١٩٤٨ ، وقبول قيام دولة يهودية عربية في فلسطين يعيش فيها الطرفان في وئام فردوس أرضي لا أجمل ولا أحسن ! ان تنصيبه ارادته ورغبته ـ ارادته ورغبته في الوصول الى توفيق ـ ينقله نقلا غير علمي وغير منطقي الى اعتبار هذه الارادة هي الواقع ، والى عدم الفصل بين الرغبة وبين القدرة . وهكذا يضمّن ثنايا كتابه معلومات وافكارا عديدة ـ يشعر القارىء انها مقتسرة وانها موجهة برغبة لا بدراسة علمية ـ هدفها أن تثبت ان مطامح الصهيونية التوسعية واحلامها الكبرى في دولة من الفرات الى النيل ليست هي شعار سكان اسرائيل ـ أو ليست شعار معظمهم ـ وانها وقف على بعض القادة الصهيونيين وعلى بعض الزعماء الاسرائيليين المتصلبين . وكأنه يريد من خلال ذلك أن يوجه كلا الطرفين المتنازعين : يريد أن يوجه أبناء اسرائيل الى ضرورة اتخاذ مثل هذا الموقف اللاصهيوني ، كما يريد أن يوجه العرب الى امكان افتراض حدوثه !

من خلال هذه العوامل ، يقع التحليل التاريخي والاجتماعي الذي يقوم به للاحداث فريسة فكرة مبيتة مسبقة ، توجه أخيرا طراز تخيره للحوادث وتفسيره لها . هذه الفكرة المبيتة هي الرغبة أولا في ايجاد حل للنزاع والاعتقاد بالتالي ان هذا الحل ممكن وتأييده ـ بعد ذلك ـ بالاحداث والمعلومات والحجج . انه يضع النتيجة الى حد كبير قبل المقدمات ، ويختار الموقف ليتخير على ضوئه كثيرا من الحقائق والحوادث . ولا نعني بهذا انه يقوم بهذا العمل عن وعي كامل وعن سابق تصور وتصميم . فمن الصعب أن نبين ـ لدى أي مؤلف ـ مدى وعيه الفعلي لخطته ومدى انسياقه عن ايمان وصدق وراء خطة يخالها وليدة بحث علمي ، وكثيرا ما تكون محصلة مجموعة من العوامل الذاتية وغير الذاتية لا يعيها صاحبها كامل الوعي . من العسير ان نقول ايهما أسبق في التكوين في فكر الكاتب : النتيجة التي وصل اليها أم الاحداث التي أيد بها النتيجة . ولعلهما في واقع الامر متعاصران لدى كثير من الكتاب : فالاحداث يتم اختيارها وتفسيرها من خلال نتيجة قد تكون في البداية غامضة غير متبلورة ، والنتيجة ما تلبث حتى تبلورها الاحداث والوثائق . وهكذا تنمو الاحداث والنتائج متكاملة الى حد بعيد ، متآزرة في معظم الاحيان .

على ان في وسعنا أن نقول غير متجنين ان أولوية النتيجة وسبقها وقيادتها للاحداث بارزة واضحة بل تكاد تكون فاضحة في الدراسة التي بين أيدينا . ولعل مما يبرر ذلك كون النتيجة المفروضة نبيلة كما تبدو للكاتب ، موجهة بالجوانب التي تتراءى انسانية خيرة . ومن هنا فهي لا تبدو للباحث العلمي ـ ولا سيما اذا كان غربيا ـ عاملا مشوها يحسن استبعاده ، والتصديق بها وقبولها يكادان يندسان بيسر .

وهكذا تطرح هذه الدراسة موضوع صلاح البحث الاجتماعي العلمي في الدراسات التاريخية والسياسية ، وتكشف بشكل نموذجي معبر عن مزالق مثل هذا البحث ، حين يريد في الاصل أن يضع الحقائق والوثائق قبل التفسيرات والنتائج ، وحين لا يعدو في واقع الامر أن يفعل ما فعله غيره ، فينطلق من النتائج عن شعور أو غير شعور ، سوى انه يخرجها وكأنها وليدة الحقائق والبيانات والمعلومات الموضوعية . غير ان مزالق مثل هذا البحث الاجتماعي العلمي عامة لا تبرر الاحجام عنه ، ولا تبطل شأنه ، بل تبين حدوده ، وتحفزه الى مزيد من الموضوعية . وأيا كانت الحال فلا بد للباحث أن يغتبط حين يرى كاتبا مثل رودنسون يقتحم مثل هذا المنهج ويركب هذا المركب الصعب في موضوع شائك ، يجلله ضباب العواطف ويسوده سوء الفهم وتعشش فيه الضلالة المزمنة ، حتى لدى أكثر المفكرين تجردا ووعيا في دنيا الغرب . ولا يسع القارىء ، والقارىء العربي خاصة ، الا ان يقدر المسافة الهائلة التي قطعها مثل هذا البحث الذي ساقه الكاتب والشأو الذي بلغه في توضيح المسألة وجلائها وابراز أوصالها ومعالمها .

***

على ان هدفنا ما هو أن نكتب مقالة عن قيمة البحث الاجتماعي التاريخي وعن مدى نجاح المؤلف فيه . فلنمض توا الى تحليل الكتاب عن كثب ، فمثل هذا التحليل هو القمين بأن يلقي مزيدا من الضوء على الملاحظات التي قدمنا بها لهذه الدراسة .

يضم الكتاب ثمانية فصول وخاتمة . أولها يتحدث عن الاصول التاريخية للشعب اليهودي . وثانيها يشير الى نشأة الفكرة الصهيونية وفكرة الوطن القومي اليهودي . وثالثها يتحدث عن السنوات العشر الاولى التي تلت ولادة ذلك الوطن . ورابعها يحلل الوجود العربي بعد معركة قناة السويس ويشير الى تباشير الحركات الاشتراكية التي اخذت في الظهور . وخامسها يصف بعض معالم الصراع العربي الاسرائيلي حوالي عام ١٩٦٣ ويقف خاصة عند الوضع في اسرائيل وأمائر الصراع بين الفئة المعتدلة فيها والفئة المتصلبة . وسادسها يقدم وصفا للاطار الذي يقوم ضمنه واقع السياسة العربية ، اطار الدول العربية والدول الافريقية والدول الاسلامية . وسابعها يوضح الهدوء النسبي الذي ساد العلاقات العربية الاسرائيلية منذ عام ١٩٦٤ حتى قبيل محنة حزيران ، والانفجار المفاجىء الذي

حدث في الموقف قبيل هذه المحنة . وثامنها يسرد الاحداث التي سبقت الخامس من حزيران والعوامل التي أدت الى وقوع الاصطدام . أما الخاتمة فهي التي تحاول أن ترسم صورة المستقبل الممكنة كما يتراءى للكاتب من خلال الاحداث الواردة في الفصول السابقة ، ومن خلال آماله وتطلعاته . وهذه الخاتمة هي التي تفتح في واقع الامر بابا واسعا للجدل والمناقشة ، وتكاد تلقي على سائر الفصول هالتها وتهب لها معناها النهائي .

والحق ان فصول الكتاب كلها مرتبطة بخيط رائد أساسي ، قوامه البحث عن كل العوامل والعناصر التي من شأنها أن **تهوّن المسألة** ، سواء في نظر العرب أو في نظر الصهاينة . وهدف هذا التهوين امكان فتح باب لحل يبدو للكاتب أبعد الحلول عن مزيد من المآسي والآلام للفريقين . فكثير من الحقائق المثبتة والتحليلات الواردة تريد أن تقدم بعض الاعذار للطرفين ، فعلة من يريد التوفيق والاصلاح . انها تقر بحق العرب الاصلي وتقر بالحيف الذي وقع بهم ، غير انها تفترض ولادة حق جديد لاسرائيل ، حق البقاء في دولة قامت وتكونت . وبين هذين الحقين ، بين قرني الاحراج كما يقول المناطقة ، تريد أن تجد مخرجا ! ومن هنا يقع الكاتب في مأزق صعب وفي تناقضات لا مفر منها . وهذه بعضها :

(١) لقد أراد هرتزل وأتباعه عام ١٩٠٠ أن يقيموا مستعمرة في فلسطين . غير ان ذلك حدث ، لسوء الحظ ، في زمن لم تكن فيه فكرة الاستعمار مستهجنة ، كما انه قام في فترة ما كان يأبه فيها الاوروبيون لسكان أي بلد خارج عالمهم ، وكانوا يفترضون أي رقعة وراء ذلك العالم وكأنها خلوة فارغة تنتظر من يحتلها . تلك حقيقة تاريخية « علمية » في نظر الكاتب تبدو له وكأنها كافية لتفسير موقف هرتزل وصحبه ! ولعلها تتراءى عنده وكأنها أسباب مخففة للجريمة .

(٢) وقيام اسرائيل ألحق حيفا دون شك بسكان البلاد الاصليين حين طردهم من ديارهم ، غير ان مثل هذا الحيف ليس أول حيف من نوعه يقع في تاريخ الانسانية ، وتاريخ العرب نفسه يشهد انهم أوقعوا مثل هذا الحيف على شعوب أخرى ! صحيح ان ما فعله العرب كان في حقبة زمنية قائمة على الفتوحات وعلى غزو أمة لامة ، وان ما فعلته الصهيونية تم في عصر يأبى طرد شعب لشعب ، غير ان في وسعنا ـ فيما يبدو للكاتب ـ أن نعتبر ذلك أيضا سببا من الاسباب المخففة للجريمة !

(٣) وبعد قيام اسرائيل ـ فيما يروي المؤلف ـ حاول بعض قادتها أن يرفضوا حلم اسرائيل الكبير (من الفرات الى النيل) وأن يجنحوا الى السلم وأن يقدموا حلولا معقولة على نحو ما فعل « شاريت » مثلا . غير ان موقف الفئة « المتصلبة » ، وعلى رأسها بن غوريون (فضلا عن الرفض العربي) لم يوفر لمثل هذه المحاولات شروط النجاح . وكأن هذه النوايا المفترضة لدى بعض زعماء اسرائيل وبعض سكانها تبدو مرة أخرى للكاتب أسبابا مخففة للجريمة !

(٤) واسرائيل واقع ارتبط بالغرب وبالوجود الغربي الاميركي خاصة ، غير ان هذا الارتباط لا يعني انها في جوهرها قاعدة استعمارية ، ما دام وليد ظروف سياسية أملته . وليس هنالك ما يحمل على الاعتقاد ـ في رأيه ـ ان مثل هذا الارتباط جوهري وأساسي ومستمر وغير قابل للتغير !

تلك أفكار منثورة هنا وهناك في ثنايا الكتاب ، هي التي تنبىء عن نقطة الضعف التي أشرنا اليها . نعني وجود « خلفية » وراء البحث ، تجعله مشدودا أنى تيسر له ذلك شطر « تهوين » الجرم الاسرائيلي ، واجتراح معجزة التوفيق . ولا بد أن نقول ان الكاتب يقوم بمثل هذا الجهد أيضا من أجل تبرير موقف العرب أمام الرأي العام العربي خاصة وأمام اسرائيل أيضا ، وان تكن مهمته الاخيرة هذه أيسر مأخذا دون شك ما دام الامر أمر حق العرب الصريح الواضح (رغم غموضه للرأي العام الغربي) .

ان الكاتب ينطلق من حلقة قوامها المحاكمة التالية : ان قيام المستعمرة الصهيونية قد أثار ردود الفعل العربية ، وردود الفعل العربية هذه أثارت وتثير المواقف الاسرائيلية . وهكذا يستمر الدور الفاسد Cercle Vicieuse ويزداد الامر تعقيدا . وفي قلب هذا الدور الفاسد يبحث عن مخرج . والمخرج في نظره لا بد ان يكون عنصره الاساسي قبول العرب للامر الواقع ، واعتراف اسرائيل بالاضرار التي ألحقتها بالعرب ! لا بد في نظره أن يعترف العرب للاسرائيليين بحق الحياة ضمن المؤسسات التي أقاموها . ولا بد في مقابل ذلك أن يعترف الاسرائيليون بأنهم ألحقوا بالعرب خسائر كبرى ، وبأنهم حرموهم من حقهم في الحياة في أرضهم .

وعند ذلك يمكن التفكير في تعايش بين المجموعتين ، بحيث يعود عدد كبير من اللاجئين العرب الى ديارهم ، وبحيث يمكن قيام دولة ثنائية القومية !

ولن نناقش هذه النتائج التي يخلص اليها الكاتب من زاوية امكانها أو عدمه . وهو نفسه يقر بأنها قد تكون من قبيل الاحلام . وكأنه يريد أن يقول ان الايمان بالحلم يمكن أن يهيىء الشروط لانقلابه الى واقع . والذي نريد أن نقف عنده هو مدى انسجام هذه النتائج مع المنهج العلمي الذي اختاره ، ومدى اتفاقها مع التفكير المنطقي والعلمي .

لقد قلنا أكثر من مرة ان المهمة الخيرة في نظره التي نذر الكاتب نفسه لها لا بد أن توقعه في تناقضات عديدة . فهو يريد التوفيق والاصلاح ولا يريد الحكم لزيد أو لعمرو لمجرد الحكم . ولا نريد أيضا أن نناقش هذه النية نفسها ، فقد تكون ـ ضمن جملة الشروط التي يكتب فيها الكاتب كتابه ـ نية خيرة . وقد لا يرى الكاتب ـ ضمن اطار الظروف التي توجد فيها المشكلة ـ بديلا أفضل منها .

غير ان هذا ليس كافيا ليجعل المنطق خلفا ، وليقلب الحق على عقبيه ، وليجعل الجاني والمجنى عليه في منزلة تكاد تكون واحدة :

(١) ان المنطق العقلي لن يقبل ـ في سبيل ايجاد مخرج لمأزق صعب ـ أن يجعل كلا العرب والاسرائيليين أصحاب حق ، ينبغي أن يعترف به كل منهما للآخر .

وكتاب « رودنسون » نفسه في معظم أجزائه ينكر على الاسرائيليين أي حق تاريخي أو غير تاريخي في احتلال بلاد غيرهم . لكنه ما يلبث فجأة ، في خاتمة كتابه خاصة ، أن يتحدث ـ حديث من لا يريد أن يثير الجاني طمعا في اقناعه بالحل ـ عن حق لاسرائيل في البقاء . انه في نظرة الحق الذي فرضه قيام اسرائيل ، واغتصاب اسرائيل . ولا ندري ماذا يبقى من حقوق الدول اذا اعتبرنا سياسة الامر الواقع أصلا . ومن يستطيع عند ذلك أن يفرق بين شريعة القوة والغاب وبين شريعة حقوق الانسان والامم .

(٢) ان من الصعب على من يقرأ كتاب «رودنسون» نفسه ويقرأ تاريخ الصهيونية وولادة دولة اسرائيل ، أن يعتقد مع « رودنسون » ان اسرائيل صادقة في أي محاولة ظاهرية من محاولات السلام والوفاق مع العرب .

والاحداث التي يذكرها حول مقاومة كثير من اليهود في الاصل للفكرة الصهيونية ، وحول جنوح بعض زعماء اسرائيل بعد ولادتها نحو حلول وتنازلات ، وحول عودة اسرائيل عن أحلامها الكبرى ، تعبر في واقع الامر عن حقيقة واحدة لا ثاني لها ، هي حقيقة الكر والفر ، والسير تبعا لمقتضيات الظروف ، تيسيرا للهدف النهائي وتجزيئا له الى مراحل وخطوات . وتاريخ الصهيونية منذ أيام « هرتزل » حافل بمثل هذه المناورات ، وبمثل هذه التراجعات التي يقصد منها الاستعداد لهجوم أكبر . والنتائج وحدها كافية للتدليل على ذلك . وتمسك اسرائيل بعد كل جولة بمزيد من الاراضي واقتناصها كلما سنحت الفرصة لجزء من بلاد العرب لا يتركان مزيدا لمستزيد . قد يقول الكاتب بينه وبين نفسه ان مثل هذه المواقف المعنة في الجشع هي نتيجة « الرفض العربي » . ولكن ما أسعد هذا الموقف الاسرائيلي اذن وما أشد مجونه: لقد اقتطعت اسرائيل أرض العرب ، فاذا هم رفضوا القبول بالامر الواقع فليس أمامها الا أن تقتطع أرضا أخرى ! **انها دعوة سهلة الى السلم تلك التي تدعو اليها على أسنة الحراب** . وانه لايمان عميق حقا بالتعايش ذلك الذي يجعل منه مبررا وأداة لمزيد من التوسع !

(٣) ان كتاب « رودنسون » نفسه ومقاله الشهير السابق في مجلة « الازمنة الحديثة » يشهدان ان « اسرائيل واقع استعماري » . غير ان المؤلف ينعطف فجأة في خاتمة الكتاب الذي بين أيدينا ليدخل بعض التعديل على موقفه ، وهو تعديل تمليه عليه أيضا في نظرنا تلك الرغبة في التوفيق . انه يرفض انتساب اسرائيل وارتباطها بالعالم الغربي ارتباطا جوهريا . ويعتبر ذلك الارتباط عارضا وليد ظروف سياسية . ويبلغ به الامر حدا يشوه فيه معنى القاعدة الاستعمارية حين يفهم من هذه الكلمة قيام دولة هدفها استغلال العالم الثالث المتخلف واستثماره من قبل قوة صناعية حديثة . وعند ذلك ينكر أن تكون اسرائيل قاعدة استعمارية بهذا المعنى ، وأن يكون انتسابها الى العالم الغربي قائما من خلال بنيتها الاقتصادية المتقدمة . وهو بهذا يضيق معنى القاعدة الاستعمارية كما انه ينسى الارتباط بين البنية الاقتصادية والبنية السياسية في أي بلد . والادلة واضحة على الدور الاستعماري الذي تقوم به اسرائيل بالنسبة الى البلدان العربية ، بحيث لا نحتاج الى سرد لها . وحسبنا أن نذكر واحدا منها ، أورده المؤلف نفسه في معرض حجته ، وهو جدير بأن نورده في معرض الرد على تلك الحجة . انه يقدم كدليل على عدم ارتباط اسرائيل بالاستعمار الغربي ارتباطا جذريا انها لا يمكن أن تكون حجر عثرة في طريق تقدم البلدان العربية ، وان الثورة الاجتماعية والاقتصادية والتقدمية في البلاد العربية لا تقلقها ما دامت لا تهدد وجودها وحياتها ! وههنا جوهر المشكلة : **ان أي تقدم وتحرر حقيقي يمكن أن يحدث في البلاد العربية ، لا يمكن أن يكون لصالح اسرائيل . ومن هنا فهي متآزرة مع جميع قوى الرجعية والسيطرة في العالم من أجل الحيلولة دون ذلك التقدم . وذلك هو دورها الاستعماري الكبير** ، وهذا هو بالدرجة الاولى معنى وجودها كقاعدة استعمارية . انها بالتعريف وبحكم طبيعتها ضد تقدم البلدان العربية ، بل ضد بقائها ووجودها . وجهودها المتآزرة مع المعسكر الرأسمالي والامبريالي موجهة بالدرجة الاولى نحو تعطيل ذلك التقدم ، ونحو اضعاف الوجود العربي نتيجة لذلك . بل ان مهمتها الاولى انعاش أعمق صيغ التسلط لدى ذلك المعسكر وحثه على ممارسة سياسة امبريالية في البلاد العربية لعله يمارسها في غير ما قناعة أو حماسة . يشهد على ذلك ان كثيرا من الدول الغربية بدأت تضيق ذرعا بمطالب اسرائيل وموقفها ، وتهتبل الفرص للتحرر من ضغطها اللامعقول ، في عالم لم يعد يتسع لاشكال التسلط والاستعمار البالية . ويشهد على ذلك ان اسرائيل جرت فرنسا وانكلترا الى معركة خاسرة لا معقولة عام ١٩٥٦ ، وهي اليوم تجني بعض ردود الفعل على ما ورطتهما فيه . ان اسرائيل لا تبدو مرتبطة بالعالم الغربي وبالسياسة الامبريالية مكرهة ، بل العكس هو الصحيح ، انها تريد أن تنعش السياسة الامبريالية وتحييها من أجل مطامعها ، ولو لم تكن الامبريالية موجودة لخلقتها .

***

هذا جانب من التناقض المنطقي الذي يقع فيه الكاتب نتيجة للفكرة المبيتة لديه ، فكرة التوفيق والتعايش . وهذا لا يعني انه لا يعرض أفكاره هذه في كثير من الحيطة

ـ التتمة على الصفحة ٥٨ ـ

اسرائيل والرفض العربي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥ ـ

ومحاولة الدقة . وانه لا يبين في كثير من الاحيان ما لها وما عليها . غير ان خطها الغالب هو الخط الذي ذكرناه ، أما الليونات والترجح فتدل على الحيرة التي أوقع نفسه فيها وعلى المركب الصعب الذي ركبه .

ومع هذا وذاك ، فالكتاب في جملته عامر بغير هذه الافكار المتناقضة . انه عامر بحقائق وآراء قيمة سديدة . وان له فضل جلاء الكثير من الغموض الذي يجلل القضية الفلسطينية لدى الغرباء عنها . ولقد استطاع أن يكشف زيف كثير من الافكار التي يؤمن بها الناس هنا وهناك حول اسرائيل ووجودها . كما انه استطاع أن يقدم في كثير من الاحيان شرحا سديدا لاحداث الصراع العربي الاسرائيلي يخالف الاخطاء الشائعة لدى الرأي العام الغربي وغير الغربي على حد سواء . ولا يتسع المقام لذكر هذه الافكار السديدة التي يأتي بها ، والتي يغير من خلالها نظرات الغربيين الخاطئة بل بعض أفكار العرب المألوفة . وحسبنا أن نشير الى بعضها :

(١) يؤمن الكثيرون في العالم الغربي وفي البلاد العربية ان قيام دولة اسرائيل يتفق مع النبوءات التي جاءت في الديانة اليهودية حول عودة اليهود الى أرض صهيون . ويبين المؤلف خطأ هذا الاعتقاد : فالنبوءة الواردة في الكتب الدينية تتحدث عن عودة في آخر الزمان (تشبه عودة المهدي المنتظر أو المسيح) ، يقوم خلالها عصر ذهبي في فلسطين ، ولا تتحدث عن عودة سياسية مبتسرة كالتي بشرت بها الصهيونية . ومثل هذه العودة التي تمت تناقض في نظر كثير من رجال الدين تلك الوعود الدينية وتخالفها . ولهذا كان رجال الدين اليهودي أعدى أعداء الصهيونية في أيامها الاولى خاصة . وهكذا نجد الصهيونية قد استغلت في واقع الامر شعورا دينيا ، غيرت حقيقته وأعطته طابعا سياسيا « علمانيا » . **فالحديث عن أرض الميعاد لم يرد قط في كتب اليهود على الصورة التي اصطنعتها الصهيونية من أجل أغراضها الدنيوية .**

(٢) يقبل كثير من الغربيين الفكرة الشائعة القائلة ان مئات الآلاف من العرب الذين غادروا فلسطين أثناء حرب عام ١٩٤٨ ، فعلوا ذلك بدافع من زعمائهم العرب أنفسهم . ويبين الكاتب للرأي العام الغربي خطأ هذا الاعتقاد ، ويشرح الاسباب الحقيقية لهجرة العرب ، وهي أسباب يأتي على رأسها الارهاب الذي مارسه اليهود ، والذي نجد مثالا عليه في مذبحة « دير ياسين » .

(٣) يبين الكاتب للرأي العام الغربي أيضا ان الشعب اليهودي الذي جاء ليحتل فلسطين شعبا مغايرا كل المغايرة للشعب اليهودي القديم الذي سكن تلك البلاد منذ نيف وألفي سنة ، وان اليهود منذ أيام تحريرهم وتوزعهم على الارض لم يعودوا يكونون شعبا بأي معنى من معاني الكلمة . لقد زالت عنهم صفات الجماعة المتجانسة والامة المتشابهة وأصبحوا أفرادا تربطهم فيما بينهم أحيانا رابطة الديانة المشتركة وأحيانا أخرى ثقافة مشتركة ضيقة تكونت ضمن حدود البلدان التي سكنوها (وما هي بالتالي ثقافتهم القديمة) ، وأحيانا ثالثة ذكرى أصولهم المشتركة جزئيا . وهكذا فان الجماعة التي أرادت أن تحتل فلسطين جماعة جديدة ، شعب غير متجانس ، بل لا تصدق عليه كلمة شعب . وهذا الشعب غير المتجانس الذي لا يكون شعبا هو الذي أراد أن يطرد شعبا متجانسا أصيلا عريق الحضارة موحد الكيان . **ومن هنا فالكارثة مضاعفة : انها كارثة طرد جماعة لجماعة ، وانها فوق هذا كارثة طرد جماعة غير متجانسة ولا تكوّن شعبا لجماعة أخرى متجانسة عريقة الاصول .**

(٤) وكنتيجة لذلك يدحض الكاتب معتقدا آخر شاع لدى الغربيين ، وهو المعتقد الذي يرى ان سكان فلسطين العرب لم يكونوا سوى محتلين لارض لم تكن لهم ، وانهم قد فتحوا تلك البلاد عنوة في القرن السابع للميلاد ، لا يختلفون في ذلك عن الرومان أو الصليبيين أو الاتراك الذين احتلوا تلك البلاد في فترات مختلفة . ولهذا فهم ليسوا في نظر هذا المعتقد الخاطىء المضلل سكانا أصليين للبلاد أكثر من سواهم ، بل ليسوا أكثر أصالة من اليهود الذين سكنوا هذه البلاد في القديم وكان لهم فضل احتلالها قبلهم ! ويرد « رودنسون » هذا الزعم ، ويبين انه على الرغم من قلة عدد العرب الذين فتحوا فلسطين وجاءوا من بلاد العرب في القرن السابع ، فان سكان تلك البلاد ما لبثوا حتى تعربوا سريعا بتأثير عوامل عديدة ، على رأسها عامل الدين الاسلامي . **وهكذا غدت فلسطين عربية وانصهر سكان البلاد مع الفاتحين ، في حين انها لم تصبح يوما رومانية أو تركية أو غير ذلك .**

(٥) وقريب من ذلك ما يفعله الكاتب حين يوضح للرأي العام الاجنبي الفارق الاساسي بين « احتلال » العرب في الماضي لبلاد سواهم ، وبين احتلال اليهود اليوم مثلا لبلاد فلسطين (رغم انه يعود فيقع في شيء من التناقض حول هذا الموضوع في خاتمة كتابه كما ذكرنا) . فلقد قام العرب بفتوحاتهم في عصر كانت فيه الفتوحات أمرا عاديا . وهم بعد ذلك فتحوا بلادا تحتلها شعوب غريبة عنها كانت تسومها العذاب ، ولهذا فان معظم سكان تلك البلاد تلقوا الفاتحين العرب كمنقذين . ثم ان العرب لم يعاملوا الشعوب التي فتحوا بلادها معاملة المغلوبين ، بل عاملوهم معاملة الند للند ، وأحسنوا حتى الى من بقي منهم على دينه النصراني أو اليهودي . هذا اذا لم نرد أن نقول ان سكان معظم تلك البلدان التي فتحها العرب ينتسبون في الاصل الى موجات جاءت من جزيرة العرب (بعض

الحجج الواردة هنا أضفناها نحن الى حجج المؤلف) . ومن هنا دانت لهم تلك البلاد طوعا ، وانصهرت في بوتقتهم وما لبثت حتى استعربت .

وآية هذا كله انه لا يجوز تشبيه احتلال اليهود اليوم لفلسطين باحتلال العرب لبلاد غير الجزيرة العربية أيام الفتوحات الاسلامية ، ولا يجوز بالتالي في أي حال من الاحوال أن نبرر تلك بهذه ، كما يفعل كثير من الكتاب المضللين .

***

والكتاب في جملته يخاطب الرأي العام الاجنبي أولا وقبل كل شيء . ويوفق الى حد كبير في أن ينضو عن القضية الفلسطينية ما علق بها من أفكار خاطئة في أذهان الغرب ، بفعل الدعاوة الصهيونية خاصة . ومن الجوانب القوية التي نقع عليها في الكتاب ، تلك التي تفند كبريات الحجج التي يتذرع بها الصهاينة والتي ينساق معها كثير من المضللين في الغرب .

ونقدم فيما يلي جانبا من مناقشة المؤلف لتلك الحجج الشائعة الخاطئة :

(١) يقف المؤلف عند ذلك السلاح الذي طالما استخدمته الصهيونية ، لاجتذاب العطف اليها ، نعني التحدث عن آلام الشعب اليهودي وما لقيه عبر التاريخ من خسف وهوان ، وما لقيه على يد النازية خاصة من تقتيل وتشريد . والصهيونية كما نعلم تعتبر هذا الواقع الاليم الذي تعرضت له كافيا لتبرير مطالبتها بوطن قومي تأوي اليه وتنهي فيه قصة آلامها وعذابها . وتستغل الصهيونية في هذا المجال ما يساور الغربيين من شعور بالاثم أمام المآسي التي تعرض لها اليهود ، ومن رغبة في التكفير عن ذلك الاثم ، ولو على حساب غيرهم . وجواب المؤلف على هذه الذريعة الصهيونية واضح صريح : لو حق لآلام اليهود أن تبرر في نظر بعضهم انشاء دولة مستقلة ، فليس في ذلك على أية حال ما يبرر أن تقوم تلك الدولة على حساب العرب . والعرب غير مسؤولين أولا وآخرا عن آلام اليهود في أوروبا . ومن حقهم أن يقولوا : **اذا كان الاوروبيون يشعرون بالاثم وبالمسؤولية تجاه اليهود ، فما عليهم الا أن أن يقدموا لهم بعض أرضهم ، بدلا من أن يتنازلوا لهم عن أرض سواهم .**

(٢) ويفند الكاتب كذلك ذريعة « العداء للسامية » التي يريد الصهاينة أن يمتطوها من أجل أغراضهم . فهم يتهمون بالعداء للسامية كل من لا ييسر مهمة الصهيونية ومطامعها التوسعية ، وكثيرا ما يوهمون الرأي العام الغربي بأن عداء العرب لهم يسقي من نزعة عامة ضد السامية وضد اليهود . ويجيب المؤلف بأن موضوع « العداء للسامية » موضوع وجد لدى الاوروبيين ، ولم يعرفه العرب . غير ان خلق دولة اسرائيل كان من أهم عوامل اذكاء هذه النزعة دون شك . فلقد أثارت الصهيونية في البلاد العربية نزعة معادية للصهيونية كان لا بد لها أن تؤدي بشكل من الاشكال الى نزعة عداء للسامية واليهود. **ومعنى هذا ان الصهيونية لم تستطع في الواقع ، كما زعمت ، أن تسهم في حل مشكلة العداء للسامية ، بل عملت على اذكائها في كثير من الاحيان ، لدى العرب ولدى سواهم .**

(٣) ويضطر الكاتب أن يقف عند حجة واهية تصطنعها الصهيونية مع ذلك ، كجزء من خطتها التي تجرب فيها ألا تهمل أي سلاح في معركتها . فكثيرا ما يوهم الصهاينة الرأي العام الاجنبي ان الصراع بينهم وبين العرب صراع بين التقدم والتخلف ، بين المدنية والبربرية ، وان أبرز أسبابه تلك النقائص التي تنسب الى العرب ، وذلك التخلف الذي يعانون منه في حياتهم السياسية والاجتماعية . ويجيب الكاتب على هذه الذريعة العجيبة : **ليس من حق أحد أن يقول ان شعبا يشكو من نقائص تجعله جديرا بأن تقتطع أرضه وتحتل دياره .** ومثل هذه الحجة الفريسية التي تصطنعها الصهيونية حجة طالما لجأ اليها الفاتحون المغتصبون في شتى الصور ، غير ان الضمير الحديث يرفضها ويمجها .

(٤) كذلك يبين الكاتب ان المسألة ليست ، كما تحاول بعض الاوساط اليسارية الغربية أن تقول ، مسألة صراع بين الاشتراكية والرجعية أو الفاشية العربية . فالصهيونيون ، كما يجيب بوضوح ، جاءوا الى فلسطين لينشئوا دولة يهودية ، ولم يأتوا اليها ليكونوا حواريين مبشرين بالاشتراكية . ولقد بيّن الكاتب في مواضع كثيرة من كتابه حقيقة النزعات الايديولوجية الاشتراكية في اسرائيل ، وحقيقة القطاع الاشتراكي في الاقتصاد الاسرائيلي ، وذكر ان البنية النهائية للاقتصاد الاسرائيلي بنية رأسمالية تعتمد على رؤوس الاموال الكبرى الاجنبية. وأيا كان الامر فيمكن التأكيد بأن المجتمع الاسرائيلي في جملته مجتمع لا يمت الى الاشتراكية ، وان الدولة الاسرائيلية لا تستهدف في سياستها الخارجية توسيع نظامها الاشتراكي . بل يمكن القول على العكس من هذا ، **ان الصراع في حقيقته صراع بين الاشتراكية العربية ضد النزعة الاستعمارية الصهيونية .**

(٥) ويزيل الكاتب وهما آخر عالقا في بعض الاذهان ، هو الوهم القائل بأن عداء العرب لاسرائيل عداء ديني يرجع الى عداء الدين الاسلامي للدين اليهودي . وههنا يبين الكاتب أيضا ان الدين الاسلامي في جوهره لا يعادي الدين اليهودي ، كما ان المسلمين لم يلجأوا أيام فتوحاتهم الى اكراه اليهود أو سواهم على الدخول في دينهم . بل ان كثيرا من اليهود الذين اضطهدهم مسيحيو أوروبا وجدوا في أرض الاسلام ملجأ وملاذا . والعلاقات بين الطوائف الدينية كانت غالبا في البلاد الاسلامية علاقات قائمة على التسامح والتعايش .

(٦) وتريد حجة صهيونية شائعة أن تقول ان الصراع في أعماقه تعبير عن نزعة « التوسع العربي » ، وجوهر

هذه الحجة انه اذا كان من الطبيعي أن تدافع كل دولة عربية عن وجودها ومصالحها ، فمما ينبىء عن نزعة توسعية أن تحاول الدول العربية المختلفة أن تدافع عن فلسطين وأن تقاتل من أجل فلسطين . وتضيف هذه الحجة في كثير من الاحيان انه لو أتيح لعرب فلسطين أن يتركوا وشأنهم لامكن الوصول الى تفاهم بينهم وبين اسرائيل ؟ وأمام هذه الحجة الواهية ، **يعجب الكاتب من أن يشكك في مشروعية مشاعر التضامن بين العرب ، الصهاينة أنفسهم الذين يرون ان من واجب يهود العالم كلهم أن يتضامنوا مع اسرائيل !** ويضيف ان بين العرب في مختلف ديارهم أواصر وثيقة من التاريخ والثقافة المشتركة ، يشعر بها كل فرد من أفراد ذلك الشعب المتجانس منذ قرون وقرون . في حين ان الصلات بين اليهود صلات واهية تعوزها حتى وحدة اللغة وهي الحد الادنى الضروري لقيام ثقافة مشتركة . وللعرب أن يتحدوا أو يبقوا مجزئين ، كما يحلو لهم ، وليس من حق أحد أن يأخذ عليهم وحدتهم ، ما داموا لا يستخدمون هذه الوحدة من أجل غزو أراضي غيرهم .

***

هذه ملاحظات عابرة على كتاب « رودنسون » .. وكنا نتمنى أن نتريث عند كثير من الافكار والحقائق الاخرى الواردة في الكتاب . كما كنا نتمنى أن نستطيع عرض وجهة النظر العربية من المسألة الفلسطينية عرضا منطقيا واضحا ، يتجاوز الاشارات العابرة التي نثرناها في هذه الكلمة هنا وهناك . غير ان مثل هذا المطلب يستلزم وحده أكثر من مقالة . ولعل لنا اليه عودا في مناسبة أخرى . وحسبنا هنا اننا قدمنا — فيما نعتقد — عرضا موضوعيا لكتاب أثار الكثير من الجدل ، وأوقع بعض الكتاب في أحكام متناقضة ، بعضها متطرف في الهجوم عليه وبعضها الآخر مجتزىء بامتداحه عن تحليله ودراسته . ونعتقد ، في الجملة ، ان أفكار الكتاب جديرة بأن تدرس وتحلل وتتخذ من قبل المفكرين العرب منطلقا لدراسات تخاطب الغرب وتعقد حوارا مع الرأي العام الصادق فيه ، بغية الوصول الى مزيد من التوضيح للقضية العربية الاولى ، وبغية الوصول الى تضامن أوثق فأوثق بين الضمائر والعقول الشريفة في العالم . وأيا كان الامر ، فالموقف السليم الذي ينبغي أن يقفه الفكر العربي من أي محاولة تتصدى لقضيته ، سواء كانت محاولة الى جانبها أو ضدها ، أن يتخذ من ذلك مناسبة لعرض وجهة نظره وتفنيد الحجج التي يراها خاطئة ، وفتح حوار فكري مع الآخرين . وأسوأ المواقف هو موقف « الرفض » ، رفض الحوار مع الآخرين ، واللجوء بالتالي الى الانكفاء على الذات والاعتكاف ضمن الحقيقة الذاتية ، التي تتراءى لصاحبها بينة بدهية ، وما هي كذلك للآخرين . ان موقف الايمان الصامت بالحقيقة ، لا يختلف في نتيجته العملية عن موقف الشك بها والخوف من اخراجها الى النور . ولم تكن الحقيقة يوما « جوزة » قابعة في قشرتها ، على حد تعبير « جيمس » ، وانما هي حوار وتفاعل وانفتاح .

ان الصهيونية استطاعت ، عن طريق الجهد والداب وعدم اليأس ، أن تقلب باطلها حقا في نظر الكثيرين ، فمتى يقوى العرب على أن يجعلوا حقهم كما يرونه هو الحق الذي يراه الآخرون ؟

عبد الله عبد الدائم — **بيروت**

صدر حديثا :

تشريح جثة الاستعمار

تأليف غي دوبوشير
ترجمة ادوار الخراط

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوروبية محض ، وهو يتلمس الصلة بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلا مطولا عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت المسيحية ظلها على اوروبا ، وصلة ذلك بالغزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعا لاخفاء الجوانب الاقتصادية الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية .

ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق للصلات بين الرق وبدء عصر الرأسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي في آسيا وافريقيا ، وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .

منشورات دار الآداب